

العنصرية تجاه مَنْ يقع خارج الغرب

عبد الإله



يلقزيز

الاثنين 13 سبتمبر 2021 06:03 م

العنصرية تجاه مَنْ يقع خارج الغرب

لا عنصرية تظاهري، اليوم، عنصرية الغرب في الحدة والشمول والهيمنة والأذى.

حركات اليمين العنصري المتطرف تتناسل من الثقافة العنصرية وتزحف وتتمدد بل تهدد بأن تتحوّل لنخب حاكمة في بعض بلدان الغرب.

الأمم المصابة بالعنصرية تبني عنصريتها المرّضية على خرافات تافهة لا قيمة لها من قبيل «تميز» العرق والدم واللون وما شابه!

الخرافات التافهة المؤسسة للعنصرية سرعان ما تتحوّل لمبدأ يُشرعن أفعال عدوان تجاه مَنْ يندون مغايرين لأولئك المسكونين بتلك الخرافات.

العنصرية تعبير عن تضخم مرّضي لأننا جماعية يتجاوز الاعتداد بالنفس نحو النرجسية وعقيدة التفوق وأوهام فزادة وتميز ومتولداتها من منازع استعلاء وإنكار.

أحد أسباب طفرة العنصرية في أوروبا والغرب الثورة العلمية التي شهدتها البيولوجيا منذ القرن 18 خاصة في دراسة الأنواع الحيوانية وتطور سلالاتها تاريخياً.

* * *

العنصرية تجاه الآخر واحدة من أظهر ظواهر التمرکز الذاتي بؤساً في أي أمة أو مجتمع أو ثقافة؛ وفي أي عصر من عصور التاريخ الإنساني. إنها تعبير عن تضخم مرّضي لأننا الجماعية يزيد عن حد الاعتداد بالنفس والتبجيل الذاتي؛ بل وحتى النرجسية.

ولكنها تعبير- في الوقت عينه- عن واحدة من أرذل النتائج التي تقود إليها عقيدة التفوق وعُدتها - التكوينية والتشغيلية - من أوهام الفزادة والتميز ومتولداتها من منازع الاستعلاء والإنكار.

الأنكى أن الأمم والمجتمعات المصابة بلوثة العنصرية كثيراً ما تبني عنصريتها المرّضية على خرافات تافهة -لا قيمة لها في الواقع ولا في ميزان العقل والعلم- من قبيل «تميز» العرق والدم واللون وما شابه!

فَيَقْر في وعيها، ولا وعيها، أنها حقائق، وتطمئن إليها بوصفها يقينيات لا يرقى إلى أمرها شك ممّا يقودها، بالتالي، إلى إتيان أفعال ومسلكتيات مؤذية للآخرين أشد الإيذاء.

غير أن الخرافات التافهة المؤسسة للعنصرية سرعان ما تتحوّل إلى مبدأ يُشرعن أفعال عدوان تجاه مَنْ يندون مغايرين لأولئك المسكونين بالخرافات تلك.

ولقد تكون العنصرية، في الأغلب من أحوالها، فعلٌ عدوان رمزي، أو معنوي، على مَنْ يقع عليه فعلها؛ فتتمظهر في صور من الحط منه والاحتقار والمجانبة والعزل وما شاكل، أو في صورة مخاطبة-مباشرة أو غير مباشرة - تتوسل أسلوب العنف اللفظي... إلخ.

لكنها كثيراً ما تتبدى في شكل عنف مادي حين يقع الاحتكاك المباشر بين من يمارسها ومن تُمارس عليه. بل قد يكون الإفصاح عن ذلك العنف، من قبل الواقع في شرك العنصرية، سبباً لاستثارة ذاتية المعتدى عليه واستدراجه إلى الرد على العنف الممارس عليه بعنف مضاد، مما قد يستجر سلسلة من الجائحات العنيفة المتبادلة.

ما من مجتمع أو ثقافة أو أمة تخلو من لوثة العنصرية تجاه غيرها، والاختلاف بينها إنما يكون في الدرجة. والغالب على الظاهرة أنها تقترن بالمجتمعات والأمم التاريخية أي من تتمتع بإرث تاريخي كبير.

ولقد كان مبنى العنصرية، في ما مضى من عهود (قبل الأزمنة الحديثة)، إما على الشعور الزائف بتفوق الدين وتفوق الجماعة المؤمنة به ومكانتها الخاصة- كما تعتقد- عند الله؛ أو على الشعور بالقوة الفائقة نتيجة السيطرة والسيادة على المغلوب؛ أو على الشعور بالخطئ العائلي أو القبلي العريق؛ أو على حيازة أسباب الغنى والترف... إلخ.

غير أن مباني هذه النزعة المرضية شُرعت في التغير والتكثُر بدءاً من العصر الحديث، فانضافت إليها أسباب أشد سخافة وأسوأ قواماً مما كانته أسبابها ودواعيها في الماضي.

والأدعى إلى الاستغراب أن أكثر ما جد على أسبابها لصيق الصلة بتطور الأبحاث العلمية، الأمر الذي تولّد معه يقين زائد بوجهة هذه الأسباب التي تدعو إلى العنصرية وتشرعننها بما هي فعل «طبيعي».

واحد من أسباب طفرة العنصرية في أوروبا، ومجمل الغرب استطراداً، الثورة العلمية التي شهد عليها علم الأحياء (البيولوجيا) منذ القرن الثامن عشر، خاصة في ميدان دراسة الأنواع الحيوانية وتطور سلالاتها عبر أحقاب التاريخ.

ولقد قادت نتائج الأبحاث والدراسات، في ذلك الميدان، إلى تطبيقات خرقاء لها على النوع الإنساني. ومن حينها بات مألوفاً الحديث بين العلماء وأشبه العلماء عن الفوارق بين الأعراق والسلالات الإنسانية، ثم أتى من بنى على ذلك أزعوامات من قبيل تفوق العرق الأبيض.

وكما استثمرت الحملات الكولونيالية هذه الفرضيات العنصرية وبررت بها سياساتها ضد الشعوب المستعمرة في إفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية، كذلك استثمرتها النازية الألمانية في خرافاتها عن تفوق العرق الآري كما في سياساتها لإبادة غيره من الأعراق.

وذلك قبل أن تتحوّل العنصرية إلى ثقافة جمعية في أوروبا، وإلى سياسة عليا رسمية، بعد أن رسخت لها الجذور في أمريكا الشمالية منذ إبادة البيض الأوروبيين لسكان القارة الأصليين إبادة جماعية.

لا عنصرية تظاهري، اليوم، عنصرية الغرب في الجدة والشمول والهيمنة والأذى. السياسات العدوانية الغربية ضد شعوب العالم الثالث؛ واهتمامها حقوقها الوطنية والاقتصادية والسياسية والسيادية؛ واستبعادها من ميدان صناعة القرار الدولي والمشاركة فيه؛ وضرب مشاريعها الوطنية والتنمية المستقلة ومحاصرتها اقتصادياً وسياسياً؛ وشن الحروب العسكرية الظالمة على كثير منها..

هي غيظ من فيض تلك العنصرية البغيضة التي تؤسس رؤى دوله وسياساتها العليا تجاه ما يقع خارج عالم الغرب. غير أن الأسوأ من ذلك أن تصير هذه العنصرية ثقافة جمعية لدى مجتمعاته.

وها هي، اليوم، حركات اليمين العنصري المتطرف تتناسل من هذه الثقافة وتزحف وتتمدد؛ بل تهدد بأن تتحوّل غداً إلى نخب حاكمة في بعض بلدان ذلك الغرب.

* د. عبد الإله بلقزيز كاتب وأكاديمي مغربي.